سيكولوجيـــــــــة المتطـــــــــرف الانتحـــــــــاري

(انتحاريـــــي الـــــدار البيضـــــاء نموذجـــــا)

د. عبـــــد الودود خربـــــوش- باحـــث فـــي علـــم النفـــس – الربـــاط، المغـــــرب

abdelouadoud@gmail.com

تمهيد :

شهد المغرب خلال السنوات القليلة الماضية تزايد حدة أعمال العنف المرتبطة بالتطرف الديني، لعل أبرزها تفجيرات 16 مايو 2003 بالدار البيضاء كبرى المدن المغربية. التي ذهب ضحيتها أزيد من خمسة وأربعين شخصا فيما فاق عدد الجرحى المئة جريح، وهي العمليات التفجيرية التي استهدفت أماكن تواجد الأجانب بمركز المدينة، نفذها أربعة عشرة انتحاريا لقي أثني عشرة منهم حتفهم بعد تفجيرهم لأنفسهم، بينما نجا اثنان بعد تراجعهما عن فكرة التفجير نتيجة أسباب تستدعي حقيقة البحث المعمق، ومن بينها ما صرح به أحدهما من أن معاينته لما حل برفاقه الذين صاروا أشلاء متناثرة هي ما أثناه عن تفجير نفسه. هذه التفجيرات التي آذنت بتحول كبير في مسار الحركات المتطرفة تمثل أساسا في أسلوبها ووسائل تنفيذها وحجم ضحاياها، أسالت مدادا كثيرا وأثارت نقاشا طويلا لا يزال يلقي بظلاله على المشهد السياسي والديني والاجتماعي حتى اليوم، خاصة بعد فرار تسعة من المحكومين على خلفيتها من السجن خلال الفترة الأخيرة وحلول ذكراها الخامسة.

غير أن ذلك لم يمنعنا من معاودة النبش في ملفاتها من خلال اعتماد مقاربة سيكولوجية صرفة لتفسير بعض حيثيات الظاهرة انطلاقا من تقديم تفسير المدارس النفسية المختلفة للظاهرة، والبحث في الخصائص العامة لشخصية المتطرف الانتحاري، مع الإشارة إلى أننا سوف نركز على المتطرف المنفذ (الانتحاري) فقط، فيما نستثني باقي فئات المتطرفين (المنظر والمخطط و الممول...). وإن كنا نعتقد جازمين أن مثل هكذا تحليلات تستدعي الدراسة والبحث المباشرين مع عينة من جميع فئات المتطرفين، اعتمادا على تقنيات ومناهج البحث العملي الرصين، غير أن عدم توفر ذلك في المدى المنظور والحصار الذي تفرضه السلطات الأمنية على ملفات القضية، يجعلنا نكتفي بالبحث في ما رشح من معلومات ومعطيات عن ملفات منفذي تلك الأحداث.

وإذا كان السؤال الجوهري الذي يتبادر إلى الذهن هو عن ماهية الدوافع الرئيسية لأولئك الانتحاريين ؟ فإن الجواب البديهي الذي ننطلق منه هو أن هذه الظاهرة المتعددة الأوجه والأشكال يقف ورائها أكثر من دافع واحد. ولضرورة موضوعية قررنا ألا نتطرق في تناولنا هذا لتلك الدوافع العالمية (المتغيرات الدولية، الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين: تاريخ حافل بالأمجاد وحاضر يعج بالانكسارات والهزائم، فشل التجارب القومية والوطنية، اليمينية و اليسارية...)، و لن نتطرق أيضا للعوامل السياسية (القمع و الاستبداد السياسي، غياب الحريات وحقوق الإنسان...)، و لا عن الدوافع الاقتصادية (الأزمة، الفقر، البطالة...)، و لا عن الاجتماعية أيضا (التفكك الأسري، ظهور أحزمة الفقر ومدن الصفيح..). فذلك ما سبق وأن تناولته العديد من الدراسات والكتابات بإسهاب كبير.

بل ما سنتناوله هو المحددات والخصائص الشخصية للانتحاريين من خلال التطرق أولا إلى العديد من الخصائص المشتركة بين منفذي تفجيرات 16 مايو بمدينة الدار البيضاء، - التي من المؤكد أنهم يتشاركون فيها مع منفذي هجمات انتحارية في العديد من البلدان العربية والإسلامية الأخرى حسب العديد من الدراسات والتحليلات- بحدونا هدف واحد هو التوصل إلى صورة مركبة لشخصية الانتحاريين بالاستناد إلى تحديد وتحليل الخصائص المشتركة.

قبل ذلك سنتوقف عند تفسير مختلف المقاربات السيكولوجية لظاهرة التطرف:

1. التفسيـــر السيكولوجـــي لظاهـــرة المتطرفيـــن الانتحارييـــن

بالرغم من أن مقالنا هذا يهم الحديث عن الخصائص العامة للمتطرفين الانتحاريين، وسنقوم فيه بالاستدلال بنماذج من حالات منفذي تفجيرات الدار البيضاء. إلا إننا نرى أنه لا بأس من التعريج على التفسير السيكولوجي لظاهرة التطرف أو التعصب، حيث نعتقد أن التطرف ليس نتاج شخصية محددة. بل يتم اعتناقه و الإنجذاب إليه من طرف العديد من الأفراد لأسباب وخصائص عديدة ، ليتحول إلى انحراف سلوكي تدميري تجاه الآخر بفعل عامل التلقين و " الأدلجة " عبر إعادة تشكيل نفسي يتم بعزل الفرد عن ذاته و عن مجتمعه، ثم تتم عملية إعادة بناؤه من جديد بفكر وسلوك آخر، وعادة ما تؤطر تلك العملية الثنائيات الفكرية المعروفة : "الحق والباطل"، "الحرام والحلال"، "المعروف والمنكر"، "المؤمن والكافر"...

وقد قدمت السيكولوجيا ولا تزال، تفسيراتها المختلفة باختلاف براديغمات مقارباتها للظواهر الإنسانية بصفة عامة وظاهرة التطرف على وجه الخصوص. فإذا كان الكثيرين يعتقدون أن المتطرفين أو الانتحاريين على الخصوص أشخاص يعانون من خلل عقلي أو من اضطرابات في الشخصية أو ذوي شخصيات غير سوية على المستوى النفسي. فإن السيكولوجيا ترى عكس ذلك من خلال اعتبارهم أشخاص مستقرين نفسيا وذهنيا أي أنهم أناس أسوياء، و ذلك ما أكده أستاذ علم النفس السياسي (Post) في مقال له تحت عنوان " الهوية الجماعية، الكراهية المتأصلة " بتأكيده على أن الجماعات الإرهابية تعمل بصورة منهجية على استبعاد أشخاص مضطربين عقليا أو عاطفيا، لأن هذه الفئة تشكل خطرا أمنيا عليها.

وفيما يلي نقدم جزء من التفسير السيكولوجي لظاهرة الانتحاري المتطرف لدى أهم المدارس المعاصرة وهي السلوكية والتحليلية ثم المعرفية.

1.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة السلوكيـــــــة

إذا انطلقنا من مسلمة أن التطرف سلوك إنساني، وأن كل سلوك إنساني هو سلوك مكتسب من المحيط الذي يعيش فيه هذا الإنسان. فإن المدرسة السلوكية تؤكد ذلك بل و تعتبر أن تثبيت العنف يتم عبر تعزيز البيئة للسلوك العدواني. حيث أن الطفل الذي يستعمل العنف ضد أطفالا ويحصل ما يريد يعتبر أن هذا السلوك هو الذي مكنه من أهدافه واشبع رغباته، لدى فمن الطبيعي نجد هذا الطفل يتخذ من الاعتداء وسيلة لتحقيق مآربه وخاصة إذا وفر له ذلك الاحترام والانتماء.

وتؤكد السلوكية أيضا على أهمية عامل التقليد في تعلم السلوك العدواني ويبدو ذلك جليا في حالات الجماعات المتطرفة، فأنماط التربية لا تخلو من العنف والمدرسة والإعلام والمجتمع بصفة عامة، على المستوى الدولي العنف يغزو مختلف القارات، الجماعات المتطرفة تتكاثر وعنفها يزداد بشكل مطرد هنا وهناك، بالعالمين الإسلامي والعربي.

بيد أن التفسير السلوكي للظواهر عامة وللعنف بشكل خاص، كان موضع نقد وتجاوز على اعتبار أنه سطحي وخارجي ولا يمس الجوهر،خاصة في حالة الجماعات المتطرفة التي تعتمد السرية التامة وأساليب "التقية"، مما سيفسح المجال لمقاربات أخرى طال تفسيرها عمق النفس الإنسانية عوض الوقوف عند السلوك الخارجي.

2.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة التحليليـــــــة

تعتبر مقاربة التحليل النفسي، خاصة مع رائدها " سيجموند فرويد " أن العنف والإرهاب هو سلوك عدواني مصدره الغرائز التي يولد الإنسان وهو يحملها في تركيبته النفسية، وأنه توجد غريزتان مسؤولتان عن ذلك وهما غريزتي الموت والحياة، وقد لجأ فرويد لآلهة الإغريق لتسمية هاتين الغريزتين تباعا: "الإيروس" و "الثاناتوس" اللتان تتحكمان عبر صراعهما الدائم في تشكيل السلوك. فغريزة الحياة أو " إيروس" هي التي تهدف إلى حفظ الذات و تحقيق البقاء و حب الحياة، بينما غريزة الموت أو " ثاناتوس " هي التي تدفع إلى العدوان ومعارضة الحياة، بحيث تؤدي إلى الانتحار أو العدوان والحرب مما يدفع إلى العنف و القتل وإيذاء الآخرين.

و تؤكد المقاربة التحليلية على أن هناك صراع دائم بين دوافع الحياة والموت أي بين الغريزتين، وأن علاج أعمال العنف يكون عن طريق منهجها التحليلي الذي يسعى إلى مساعدة الفرد على اكتشاف كيفية التحكم و ضبط الدوافع اللاشعورية للعدوان والتغلب عليها. كما تعتبر بأن الفرد الذي أحتقر في صغره وتعرض للقمع و الكبت (تحقير الذات)، يتشكل لديه أسلوب انتقامي في التعامل مع الآخر يدفعه إلى (ردّ اعتباره لذاته) من خلال النيل ممن قام بإذلاله والاعتداء عليه عن طريق ما يعرف ب(التنفيس)، أي تفريغ ما يكتنف الذات من كبت (كراهية وعدوان) عن طريق عميلتي النقل والإبدال دفاعا عن الذات (زيعور، 1986). وما يميز المتطرفين هو غياب الوسطية لديهم – وهنا تكمن أهمية الوعظ والإرشاد الديني – فهم لا يجدون إلا حلاً واحدا لتحقيق الانتصار للذات و هو التطرف.

و هناك من التحليليين من يربط بين التطرف والعصاب، فالمتطرف له شخصية عصابية نتيجة شعوره بعدم الأمان والتوتر الناجمين عن عوامل شتى كالإحباط والحرمان، وهو ما يؤدي بهم توجيه عدوانهم في اتجاه من يرون فيه المسؤول عن ذلك.

3.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة المعرفيـــــــة

تعتبر المقاربة المعرفية أحدث المدارس السيكولوجية، حيث قامت على تجاوز مواطن الضعف في المقاربات السلوكية والبنائية والتحليلية على السواء، فأصبحت المعرفة هي الظاهرة السيكولوجية بامتياز ، لأنها خاصة بالذهن إما (كنشاط) إنتاج المعرفة واستعمالها، وإما كحالة (بنية المعرفة)، و أصبح موضوع علم النفس هو الذكاء و المعرفة بدل السلوك أو الوجدان. ويقصد بالمعرفة جميع ما يتعلق بالعمليات الذهنية كالتذكر، الانتباه، التفكير، الإدراك، التخيل، معالجة المعلومات...

وهي العمليات التي أضحت تحدد تفكير الإنسان وبالتالي سلوكه: كيف يفكر؟ كيف يسلك سلوكاً ما ؟ هل هو سلوك عدواني أم سلمي ؟ متسامح أم متشدد ؟ متعصب ومتطرف أم مرن؟.

وتعتبر المقاربة المعرفية التطرف والأفكار النمطية نتيجة لعملية المعالجة العادية لعمليات الإدراك الاجتماعي، أو عملية من عمليات التصنيف (احمد زايد، 2006). بمعنى أن التطرف ليس سلوكا وليس نزعة لاشعورية خفية، بل هو موضوع معرفي و شأن ذهني غالبا ما يشمل أحكاما معينة، وتعبيرا عن مشاعر تميل في أحيان كثيرة إلى أن تكون عابرة أو مؤقتة يمكن مراجعتها والتخلي عنها(bloom, 1989).

وتتعدد في تفسير ذلك العديد من النظريات والمقاربات ذات التوجه المعرفي غير أننا سنكتفي مع (احمد زايد، 2006) بتناول "نظريـــة نســـق المعتقـــــد" التي يقدمها (Rokeach، 2006) كبديل لتفسير ميل الشخصية للتعصب، خاصة حين افترض أن التطابق في معتقدات الأفراد يحدد– في جزء كبير– اتجاهاتهم نحو جماعة أخرى كما أن إدراك الفروق في أنساق المعتقد له دلالة كبيرة في تأسيس التعصب، الذي يعتبر أنه لا يتم بسبب الاختلافات الفيزيولوجية بل باختلافات القيم والمعتقدات.

ويعتبر(Rokeach ، المرجع السابق) أن نسق المعتقد يشمل كل المعتقدات والحالات والتوقعات والفروض الشعورية واللاشعورية التي يقبلها الفرد ويعدها حقيقة العالم الذي يعيش فيه، وأنه يتكون من ثلاثة محاور رئيسية متفاعلة هي المعرفة والتعصب والسلطة. كما يرى أن درجة التسامح مع الآخرين تمثل جانبا واحدا منه، وان أسلوب قبول أو رفض فكرة معينة يرتبط بالمكونات الأخرى، ومن ثمة يمكن استنتاج توجهات الأشخاص انطلاقا من طرق تعاملهم مع أشخاص الفكر المغاير لفكرهم. فالشخص ذو التفكر الجامد(منغلق الذهن)، لا يستطيع تقبل وتفهم الأفكار المخالفة له، بينما الشخص المنفتح يمكنه أن تقبل ويتفهم ذلك دون صعوبات بالرغم من تناقض أو تعارض الأفكار.

وإذا شئنا تلخيص هذا التوجه المعرفي أمكننا القول أن السبب الرئيسي للتعصب هو اختلاف وجهات النظر، حيث ينتج عنه ميل الإفراد إلى كره الأفراد الذين يختلفون عنهم وهو ما يشكل نواة التعصب.

2- الخصائـــــص العامـــــة لفئـــة المتطرفيـــن الانتحارييـــن

من البديهي أن المتطرف لا يولد متطرفا بالفطرة، بل يصير كذلك عبر التنشئة الاجتماعية وعن طريق التعلم ، كما أن التطرف ليس نتاج شخصية محددة ولا هو سمة شخصية أو نفسية أيضا، و لا يمكن لأي أحد الجزم بأن هاته الشخصية أو تلك ستصير متطرفة أو إرهابية، بيد أن هناك مجموعة من الخصائص التي من الممكن أن تجتمع لدى هؤلاء.

وهو ما سنحاول الكشف عنه من خلال هذا المحور الذي نتساءل فيه عن ماهية الخصائص والمحددات التي اجتمعت في انتحاريي الدار البيضاء ؟ لكنهم تفرقوا على إثرها !!!.

1.2.الخاصيـــــــة الأولى: فئـــــة الشبـــــــاب

أثبتت الوقائع والدراسات (حامد طاهر،2005) أن الجماعات الدينية تختار أفرادها و المنتسبين إليها بعناية شديدة، خاصة إذا كان الهدف إعداد " مشاريع قنابل موقوتة "، وعادة ما تتم دراسة محيط وظروف الوافد الجديد مع الاعتماد على جملة من المعايير التي ينبغي توفرها قبل الموافقة على انضمامه للجماعة.

ومن الملاحظ في هذا الإطار تركيز هاته الجماعات على فئة الشباب بسبب جلي يتمثل في سهولة التأثير عليهم وبرمجتهم إيديولوجيا وعقائديا ثم توجيههم نحو الغايات المرسومة بسهولة. ويبدو ذلك واضحا بشكل جلي لدى انتحاريي عمليات الدار البيضاء، فكلهم شبابا في مقتبل العمر تتراوح أعمارهم ما بين 19 و 32 سنة، ينحدرون من أوساط فقيرة تسكن دور الصفيح والأحياء المهمشة المحرومة من أبسط شروط الحياة الإنسانية الكريمة.

ويعتبر(colin،2002) أنه ليس من الصدفة أن يكون معظم الانتحاريين من الرجال الشباب، مستدلا بنماذج مختلفة للسلوك الإنساني وبعض الدراسات المؤيدة لطرحه والتي تميل لتفسير الدافع النفسي بالعودة إلى علم الأحياء أو الفيزيولوجيا التي تفرق بين الإناث والذكور، كما تفرق بين الكبار والشباب الذين لم يكتمل بعد نموهم الذهني وبالتالي من السهل أن يقعوا تحت التأثير الديني والأفكار المتطرفة أو تحت تأثير "غسيل الدماغ" – كما يحلوا للبعض نعته– في حين أن كبار السن والشيوخ يكونوا راسخي العقيدة ومستقري الفكر والعادات وبالتالي يصير من الصعب تغييرهم أو التأثير فيهم.

بيد أن حالة " رابح شلح " منفذ الهجوم الانتحاري الدموي الذي استهدف مبنى الأمم المتحدة بالجزائر العاصمة – وهو شيخ يبلغ الأربعة والستين ربيعا– تطرح استفهاما عريضا حول هاته السمة ؟؟؟ و يأتي الجواب سريعا على لسان أحد أبناءه في برنامج تلفزيوني سابق: إنه الجهل وانعدام الوعي، وهو ما نعتبره الخاصية الثانية لانتحاريي الدار البيضاء.

2.2. الخاصيـــة الثانيـــة: تدنـــي المستـــوى الدراســـي والمعرفـــي

أغلب منفذي تفجيرات الدار البيضاء تركوا مقاعد الدراسة مبكرا في السنوات الأولى من تعليمهم، ولم يتعد تكوينهم المراحل الأولى من التعليم الابتدائي أو الإعدادي، ومن بينهم من ولج شعب التكوين المهني لفشله في الاستمرار في أسلاك التعليم. لذلك كان من البديهي الإشارة إلى أهمية العامل المعرفي الذي أدى بهؤلاء ويؤدي بأمثالهم إلى أن يصبحوا ضحايا الجماعات المتطرفة، حيث يكتفون بآراء وفتاوى مشايخها التي تصبح عقيدتهم المطلقة.!

إن تدني المستويات المعرفية للانتحاريين ولأفراد خلايا الجماعات المتطرفة عامة، ينتج حالة من الجمود على مستوى أنساقهم المعرفية، التي تنتج بدورها حالة من الرفض لأي تبادل أو حوار مع الأنساق المعرفية المغايرة / الآخر.

هذا التدني هو في الواقع هدف ونتيجة في نفس الوقت لتلك الجماعات:

هدف لأن هذه الجماعات لا تستقطب أفرادها عبثا، بل وفق معايير محكمة تهدف أول ما تهدف إلى استقطاب المؤهلين لمشاريع انتحاريين أو " قنابل بشرية "، لذلك يكون التركيز على الجهلة والأميين ومحدودي الثقافة والوعي.

نتيجة لكون مدرسة الجماعة تعتمد تكوين إيديولوجي صارم، عماده طاعة " الأمير" ومنهجه التلقين والتنفيذ ولا مجال فيه لشيء اسمه النقاش أو الجدال.

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى المؤسسات التعليمية لدى هاته الجماعات حيث يتعلق الأمر بمراكز للتكوين الإيديولوجي تسمى" مراكز تقوية الإيمان "، تقتصر في أول الأمر على إقامة صلاة الجماعة في وقتها وبانتظام شديد، وفي مرحلة ثانية حفظ القرآن الكريم و الأحاديث النبوية بالإضافة إلى تبادل الكتب والأشرطة التي تمجد المجاهدين في أفغانستان والشيشان كأشرطة: "عشاق الشهادة" و"المجاهد حطاب"...

ثم في مرحلة أرقى يتم الانتقال إلى دروس حول فريضة الجهاد في المجتمع الفاسد الذي يسوده الفسق والفجور ويغيب فيه الحكم بما شرع الله وأنزل، والذي لن يتأتى تطبيقه طبعا في رأيهم إلا بالعنف.

وقد عمد بعض المحامون أثناء مرافعاتهم عن الانتحاريين الناجين إلى الدفاع عنهم من خلال التركيز على مسألة تدني مستواهم المعرفي فاعتبروا أن منهم من لم يفهم حقيقة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، ومنهم من لم يسبق له أن سمع باسم جماعة " السلفية الجهادية" التي أتهم بالانتماء إليها إلا أثناء المحاكمة.

والحقيقة أن هذه المدرسة يشهد لها بالنجاح على الأقل فيما يسطره مهندسوها ومنظروها بالرغم من بساطة وسائلها وإمكانيتها المتواضعة، مقابل فشل ذريع لنظام تعليمي يتوفر على إمكانيات ضخمة ووسائله جمة، لكنه لم ينجح في الوقوف أمام ذلك الفكر ومحاربته بندية، بل على النقيض صار النظام التعليمي يقدم له وقوده وحطبه من بين جحافل المتسربين والمطرودين والفاشلين دراسيا.

وقد أثبتت الدراسات أنه كلما زاد المستوى المعرفي للأفراد وإلمامهم بالحقائق والمعارف كلما قل التطرف، كما تشير نفس الدراسات أن التعليم أحد الآمال المرجوة لبسط سيادة وانتشار اتجاهات التسامح والمحبة. فإذا كانت الأفكار النمطية قائمة على تشويه المعرفة، فإن التعرف على الوقائع يساعد على تصحيحها (احمد زايد، 2006)،كما لاحظت أبحاث أخرى أن المستويات العليا من التعليم تساهم في نشر التسامح(williams,1981)، وتذهب أخرى إلى أن التسامح يرتبط بالمستوى التعليمي والتربوي أكثر من مظاهر المكانة الاجتماعية (معتز، 1989).

3.2. الخاصيـــــة الثالثـــــة: الانعزاليـــــة

تعتبر الانعزالية بمثابة ميكانيزم دفاعي لدى الشخصية، ومن أسبابها ما يعرف في السيكولوجيا ب "صورة الذات" أو " تقدير الذات " بالإضافة إلى عوامل الحرمان و الإحباط. وقد أكدت بعض الدراسات أن الانعزال الكلي أو الجزئي من السمات الأكثر انتشارا في صفوف الانتحاريين الذي بدوره يؤدي إلى الشعور بالاغتراب داخل المجتمع، مما يؤدي في النهاية إلى تحقير الذات.

وهو ما تؤكده تصريحات محيط انتحاريي الدار البيضاء فهم في الغالب خجولين و انطوائيين و منعزلين، بل أن أحد الانتحاريين الناجيين الذين تم اعتقالهما في مسرح الجريمة حسب من كانوا يعرفونه عن قرب، كان منعزلا إلى درجة أنه لم تكن له أية علاقة بمحيطه الاجتماعي، وانتحاري آخر سبق هجرته زوجته بسبب جفائه وعزلته...

كل هذه الصفات تدل على أن الانتحاريين كانوا يعيشون حالة سلوك اجتماعي غير طبيعي، حيث يتخذ الانعزال مظاهر مختلفة مصدرها النظرة إلى الآخر على أنه عدو و منحرف وأن المجتمع على ضلال وغير قابل للإصلاح ومن ثمة فلا غاية ترجى منه.

وهي أفكار تعمد الجماعات على ترسيخها من خلال تنميط أفرادها بشكل يلغي ذواتهم ويقطع علاقتهم مع الآخر/ المجتمع – الفاجر والكافر في اعتقادهم – فالايدولوجيا الدينية المتطرفة لا تقبل الآخر انطلاقا من الفتوى التي تكفر المجتمع الذي مصيره النار، في حين أن الجماعة إلى الجنة.

ومن الملاحظ أن أفراد هاته الجماعات يشهدون حالة من الابتعاد عن الأسرة والأصدقاء والحياة العامة، مما يكرس الاقتناع بقرار الانتقام عبر عمل انتحاري. وهو الطرح الذي تؤكده عدة دراسات خلصت إلى أن أحد أسباب ظاهرة الانتحاريين المتطرفين تكمن في انعدام القدرة على التغيير الاجتماعي، وفقدان الأمل في هذا التغيير (wikan،2001).

ويغذي سمة العزلة هاته، كما ينميها في الشخصية المتطرفة أساليب التفكير الخاصة بصاحبها والتي تعمل الجماعة على تأطيرها وتكريسها، مستفيدة من عدم التواصل بين المتطرف والمجتمع. حيث أن من المعروف أن بنيته النفسية تفضل عدم الاختلاط، بل تجد ذاتها في الوحدة التي تتمظهر من خلال عزلة فردية أو خروج جماعي للمتطرفين إلى خارج المدينة أو إلى الأحراش والغابات.

4.2- الخاصيـــــــة الرابعـــــة: الهويـــــــة أو روح الجماعـــــة

إذا كان دافع الانتماء لجماعة ما وتحقيق هوية اجتماعية إيجابية أمرا طبيعيا لدى الأفراد، فإن الانتماء للجماعات المتطرفة يعد عملا مشرفا وذي قيمة عالية لدى الفرد المنتمي إليها، لسبب بسيط يرتبط بفشله السابق في علاقاته الاجتماعية.

ويرى (wintrove) أننا يمكن أن نفسر السلوك الانتحاري انطلاقا من فكرة التضامن داخل الجماعة، إذ أنه يتنازل عن ذاتيته شيئا فشيئا مقابل شعوره بالانتماء إليها. وقد بينت دراسة(1971,Tajfel) أن التصنيف الاجتماعي للأفراد المنتمون لجماعة ما يؤدي إلى خلق هوية اجتماعية خاصة بهم، حيث يعد أمر قبول العضوية بمثابة تحقيق الذات. لذلك يمكننا الجزم بأن الانتحاري شخص عادة ما يفضل التضحية بنفسه من اجل غايات الجماعة و تحقيقا للتقدير الذاتي – الذي فقده في المجتمع كما أشرنا في السمة السابقة – و انتقاما للهوية الجماعية من مجتمع " فاسق " أو " مرتد "، لذلك تشير إحدى الدراسات إلى أن التطرف ثمرة ما يسمى " الهوية جماعية " التي يتم تطويرها على مدى تشكل الجماعة (2003,Victor).

5.2- الخاصيـــــة الخامســـــة: الحرمـــــــان

لا يرتبط الحرمان بجملة المتطلبات المادية المرتبطة بعوامل الفقر والبطالة فقط كما يعتقد الكثيرون، بل يشمل أيضا الحاجيات النفسية والمعنوية التي لم يتم إشباعها، كما يشمل القمع الذي تعاني منه الذات. لذلك كان من الطبيعي أن تربط السيكولوجيا التحليلية سلوك التطرف بمجموع الخبرات السلبية التي رسخت لدى الفرد نتيجة الحرمان الذي كانت سلطة المجتمع أو سلطة الآباء السبب فيه (حرية تعبير، مكانة، تقدير...)، وينتج عنه نوع من عدم الثقة في المجتمع أو الشعور بعدم الانتماء إليه وهو ما يؤدي إلى الإحباط النفسي الذي أجمعت دراسات عديدة على وقوفه وراء التطرف.

6.2- الخاصيـــــة السادســـــة: الأفكـــــار النمطيـــــة

من المعروف أن التطرف الديني منهج فكري إيديولوجي يستمد جذوره من مصادر فكرية معروفة وجهة نظر اصحابها، لذلك وإذا كان المتطرفين المنظرين أو المخططين يتبنون شعارات " الجهاد في النصارى وغير المسلمين... " أو " تغيير المنكر في واقع مليء بالظلم و الفسق والفجور.. " أو" إقامة دولة الإسلام والخلافة..."، فإن الانتحاريين– بالإضافة إلى ما سبق– يبرمجون كما قال (القرضاوي1998) على أنهم: " جماعة معها الحق كله وليس بعدها إلا الضلال، وأن دخول الجنة والنجاة من النار حكر على من اتبعها، وأنها وحدها الفرقة الناجية ومن عداها فهو من الهالكين".

ومن المعروف أيضا أن هناك إجماع واضح على ارتباط التطرف بالأفكار النمطية، تلك المعتقدات الفكرية الجامدة التي يعتنقها فرد أو جماعة ما(devine, 1989)، و الناتجة بالأساس عن تشوه الإدراك الذي ينتج بدوره عن الافتقار للحقيقة، حيث ينجذب إليه الأشخاص ممن يسهل استقطابهم وتجنيدهم لأسباب وعوامل شتى منها ما يرتبط بمحيطهم و منها ما يرتبط بذاوتهم وشخصياتهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المحاور السابقة، فيما قد لا تتوافق تلك الأفكار النمطية مع خصائص شخصية أخرى.

والواقع أن ما ينبغي التركيز عليه للوقاية أو لمحاربة التطرف الديني في اعتقادنا، هو البحث عن أفضل السبل لتغيير الأفكار النمطية، خاصة تلك التي تستند على التأويل الخاطئ أو الضيق للنصوص الدينية. بالإضافة إلى نشر التعاليم الدينية السمحة والحنيفة، عبر توفير وتقديم رجال دين قادرين على مقارعة الحجة بالحجة والنص بالنص والنازلة بأختها.

وبعبارة صريحة ينبغي العمل على تصحيح المفاهيم، عبر العمل على تغيير الأفكار والبنيات المعرفية المتطرفة وتقديم الحجة الدامغة على مجانبة العديد من الأفكار النمطية لحقيقة الدين الإسلامي، من قبيل: "تكفير المجتمع" أو "استباحة الأرواح والأموال"، أو "اعتبار قتل الأجانب جهاد في سبيل الله" أو "تطبيق شرع الله "... وليس فقط اعتماد المقاربة الأمنية الإستئصالية التي قد لا تعطي إلا نتائج آنية فقط، ولعل تجارب أجنبية عديدة تزكي ذلك.

هذا العمل الذي نعتقد أنه كان من الضروري أن يشرع فيه منذ مدة طويلة– هو عمل أساسي ومن الأهمية بمكان– لأن الأمر يتعلق على ما يبدو بسوء فهم لتعاليم الدين، وبغياب شبه مطلق لمصادر المعلومة ولرجال و علماء الدين الوازنين و الموثوقين عن الساحة الفقهية.

هي إذن مجموعة من الخصائص التي نرى فيها نقط التشابه بين شخصيات انتحاريي الدار البيضاء، ولكن لابد من تسجيلنا في هذا المستوى ملاحظة جوهرية دفعتنا إلى التساؤل عن ماهية محددات اختلاف الأدوار بين المتطرفين باختلاف مواقعهم: المنظر، المخطط والمنفذ؟. أو بتعبير أدق ما دام أغلب انتحاريي الدار البيضاء يشتركون في أغلب الخصائص الشخصية مع بعض المخططين كعبد الحق الملقب " مول السباط "– المتهم الرئيسي بتدبير التفجيرات وهو الذي توفي أثناء التحقيق– لماذا لم يضع نفسه من بين المنفذين؟ و ماهي العوامل التي جعلته يخطط ولا ينفذ ؟ هل لم يتوقع نجاة أو تراجع أي من المنفذين؟ أم هل كان يعتبر نفسه أكثر ذكاء من الانتحاريين وبالتالي يرى أنه من الأفضل بقاءه للتخطيط لتفجيرات قادمة ؟ ربما...

تلك إذن مجموعة من الأسئلة المشروعة التي تستحق فعلا الإجابة لفهم أفضل لهذه الظاهرة؟؟؟.

وبالرغم من ذلك فإننا نسجل معارضتنا لجميع الأطروحات القائلة باستحالة تحديد خصائص المتطرفين الانتحاريين، على اعتبار أنه لا توجد صورة مركبة تتضمن الخصائص المشتركة الثابتة في الشخصية، وإن كنا نستطيع الجزم مع أحد علماء النفس بأنه فقط في الوقت الحاضر لم

نتوصل إلى تركيبة لشخصية المتطرف الانتحاري تقوم على تحليل السمات والخصائص المشتركة الثابتة بين مختلف شخصيات الانتحاريين.

و ذلك ما نرجعه في نظرنا لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية ترتبط بالظاهرة كاستحالة دراسة "المتطرف المنتحر" الذي قضى، وصعوبة دراسة من أخفق أو من تمكن من التراجع وجرى اعتقاله. وتعود تلك الصعوبة أيضا لأسباب أمنية تتعلق بعدم ترخيص السلطات الأمنية لهكذا دراسات حتى الآن، ونتمنى أن يتأتى ذلك لنا وللباحثين في المستقبل القريب خاصة مع وجود انتحاريين اثنين ناجيين من مجموعة الدار البيضاء لم ينفذ حكم الإعدام فيهما حتى اليوم.

المراجـــــع العربيـــــة

1. **احمد زايد** 2006: **سيكولوجية العلاقات بين الجماعات**، سلسلة عالم المعرفة، العدد326، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

2. **معتز سيد عبد الله** (1989): **الاتجاهات التعصبية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد137، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

3. **مصطفى زيعور** 1986 : **في علم النفس" سيكولوجية التعصب"**، محاضرة منشورة، القاهرة، دار النهضة العربية.

4. **حامد طاهر** (2005): **ظاهرة التطرف الديني**، سلسلة كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية، مصر.

المراجـــــع الأجنبيـــــة

1. Baron,R.,&Byrne,D.(1981) :**Social Psychology : understanding human interaction**. (Eds.) Boston : Allyn & Bacon,Inc.

2. Bloom,L.& Egwu,E.(1989) **Concise lecture notes on psychology.** London : Mac Millan,Publishers.

3. Devine,P (1989) : **Sterotypes and prejudice : Their automatic and Controlled Components**. Journal of Personality and Social Psychology, The American Psychological Association,Inc , 5-18

4. Rokeach,M.(1960) :**The open and closed mind**. New York : Basic Books, Inc

5. Tajfel,H.,Flament,C.Billig,M.,and Bundy.R.F.(1971) : **Social caterorization and intergroup behavior**. European Journal of Social Psychology,1,149-177.

6. Wilson, Philip P.,and Beverley Raphael,eds. (1993) **International Handbook of Traumatic Stress Syndromes**.New York : Plenum Press.

7. Jerrold Post (2005) : **The Psychological Roots of Terrorism**, in Addressing the Causes of Terrorism: The Club de Madrid Series on Democracy and Terrorism, vol. 1 (Madrid: Club de Madrid,).

8. M. Taylor and J. Horgan, (2006) : **A Conceptual Framework for Understanding the Development of Psychological Process in the Terrorist**,Terrorism and Political Violence, vol. 18: pp. 1-17.

جـــــوان لوبيـــــز إيبـــــور لعـــــام "2010"

بمزيد الإعتزاز بلغنا نبأ نيل **الأستاذ الدكتور أياد السراج** جائزة :

"جـــــوان لوبيـــــز إيبـــــور لعـــــام "2010

إني وكافة أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية لشبكة العلوم النفسية العربية، إذ نتقدم إلى الزميل أياد السراج **بخالص تهانينا القلبية**، لهذا التتويج الذي نثمنه اعترافا من الجمعية العالمية للطب النفسي بما قدمه من خدمات طبنفسية لرعاية المصابين باضطرابات نفسية، ضحايا جريمة الحرب على غزة.

إن ما قدمه **الأستاذ الفاضل أياد السراج** من عمل أهّله لنيل الجائزة، لم يكن لوحده كافيا لولا اقتناع البروفيسور عكاشة بأهمية انجازه و ما قدمه له من دعم سواء على مستوى الترشيح أو على مستوى هيئة الجائزة. **إنّ الشكر موصول للبروفيسور أحمد عكاشة** لفضله في هذا التتويج و لما له من أياد بيضاء على الطب النفسي العربي و الأطباء النفسانيين العرب.

إن انجازاتنا في حقل العلوم النفسية لا تكفي لوحدها لنيل مثل هذه الجوائز العالمية ما لم نتواجد كأخصايين عرب بشكل فعّال في مثل هذه الجمعيات العلمية العالمية و الدولية للدفاع عن منجزات مرشحينا و العمل على الإقناع بها. إنا نعيش زمن التكتلات الكبرى، و لا مكان لنا داخل المحافل الدولية و العالمية إلا بما نقدر ما نقدمه من أعمال قادرة على التنافس العالمي و بقدر ما نتكاتف مع بعضنا البعض. إنه كما علينا بذل الجهد للتميز عالميا في ميدان إختصاصنا علينا أيضا بذل نفس الجهد (إن لم يكن أكثر) للتواجد في المحافل العلمية الدولية العالمية.

إنا بكم وبأمثالكم نرقى ومعكم يسير الدرب رفعة بالعلوم النفسية في أوطاننا.

د. جمال التركي

رئيس شبكة العلوم النفسية العربية